قصة من الأدب الروسى :

« الحمى »

للكاتب الروسى أنطون تشيكوف

للأستاذ مصطفى جميل مرسى

١٨٦٠ — ١٩٠٤

« هذه صورة وليست قصة !.. تمتاز بألوان من الوصف الدقيق وتزخر بضروب من التصوير البارع ... يعرضها تشيكوف — ذلك الكاتب العظيم — بريشته الفنانة وقلمه الصنع ... فيبدع الوصف ويجيد التصوير وتجيء آية بينة واضحة على قدرته البيانية وقريحته الخصبة وعبقريته فى رسم المشاعر الإنسانية ، والإحساسات النفسية ...

فهو يجلو لنا صفحة رائعة شائقة من حياة مخلوق من البشر ... أصابته حمى «التيفوس» ، فخر صريعها ... وراح يعانى آلامها وبلواءها ... وأحسب أن هذا لا يتيسر إلا لمن كابد تلك الآلام ، وتقلت عليه وطأة المرض ... فاشتد تأثره به .! وأخرج لنا هذه الصورة المجلوة الحقة التى لا يداخلها باطل .. ولا تخالجها مبالغة !... »

« م جميل »

كان القطار ينساب بين الربوع فى سرعة وفى صخب ، بعد أن خلف وراءه « بتروغراد » وغايته « موسكو » ! ... وفى إحدى عرباته جلس الضابط « كليموف » وهو شاب تجلت على سيمائه آيات العناء والألم ! .

وكان رفيقه — الذى قعد مواجهاً له — رجلا طاعناً فى السن ! . حليق الذقن ... تلوح عليه دلائل الثراء والعيش الرغد . ويخيل إلى المرء أنه من أبناء « فينلندا » أو « السويد » ... لم يبرح طيلة السفرة ... يدخن « غليونه » ، وينفث هباءه فى الهواء ! ... وكان ثرثاراً مهذاراً ، نهماً إلى الحديث ، شرهاً إلى الكلام ... لا يفتأ يلفظ بهذره حول معنى واحد ... دون تنويع ولا تبديل ! ...

— « ها ! . إنك ضابط ! . كذلك لى أخ ضابط ؛ بيد أنه نوبى يجوب البحار ! . . ألا خبرنى ما الداعى لذهابك إلى « موسكو » ؟ ! . »

— « إن لى مقاماً هنالك ! ! . »

— « ها ! ! أما تزوجت بعد ؟ ! »

— « كلا ... إنى أعيش مع خالتى وأختى ! . »

« إن أخى ضابط كذلك ، غير أنه متزوج ... وقد أنجبت له امرأته ثلاثة أطفال ... ها ! ! . »

وكان الرجل الفنلندى ينظر — خلال ذلك — فى بلاهة وغرابة ... وتترسم على شفتيه ابتسامة تعبر عما يختلج فى نفسه من جزل ومرح ، حينما يهتف : « ها ! ! . »

أما كليموف — وكان يشعر بدوار وصداع فى رأسه ، ويحس بفتور ودعث فى جسده — فقد برم بالجواب على أسئلته ... وراح يحمل عليه فى قلبه إصراً وبغضاً ! ... وتراود نفسه رغبة جامحة فى أن يختطف غليونه ... ويلقى به تحت القعد ، ويأمر « الفنلندى » نفسه بالبحث عن عربة أخرى . !

وقال يحدث نفسه — وقد ضاق به ذرعاً « ما أفظع أولئك « الفنلنديين » وأبغضهم إلى النفس ! . إنهم أوغاد مذقو الخلق ، أولو خسة وذوو سفه ... لا يأتون إلا كل تافه غير محمود من الأفعال ... وما خلقوا إلا ليعوقوا العالم فحسب ! . فما أدرى مكرمة ذاعت لهم ، ولا حسنة أثرت عنهم ! . »

وزاد إحساس الضابط الشاب بما يكتنفه من وعك وكآبة وألم ! . فعلا وجهه شحوب وامتقاع ... وسرى الجفاف والظمأ إلى حلقه فلذعه لذعاً شديداً ، وضاقت رأسه — وقد ثقلت تحت وطأة الصداع — بما يضطرب فيها من أفكار سوداء تجول بخاطر معربدة صاخبة على غير هدى ... ثم لا تلبث أن تفيض على ما حوله من مقاعد وأناس يلوحون فى حلكة الظلام ! ...

ويطرق سمعه — فى عنف — خليط من الهرج والمرج ... يترامى إليه من بلبلة الأصوات وضوضاء العجلات ، وصفق الأبواب وهدير الأجراس وصفير القطار وضجيج الناس وعجيجهم فى كل محط يقف به ! .

وكان الزمن يمضى متباطئاً على مهل حيناً ، وسريعاً على عجل حيناً آخراً ... ولاح لكليموف وكأن القطار يقف كل دقيقة فى محطة ! . وتمر به القطارات الأخرى سراعاً يلاحق بعضها بعضاً بينما قطاره يتهادى فى سيره ويدوى ويجلجل ! ...

إن مسمع تلك الجلبة وذلك الصفير .. ومرأى هذا الفنلندى

وهذه الحلقات من الدخان ينفثها من غليونه فى الهواء ... كل ذلك تمازج مع الكآبة السوداء التى تعتديه فى إبهام . وتمخض عنه كابوس مخيف يجثم على صدره ، ويكاد أن يزهق أنفاسه ! .

وبينا هو فى غمرة ذلك العذاب الأليم ، ورفع رأسه المصدع ونظر من خلال عينيه الذابلتين ... إلى المصباح ! . وقد راح يرسل ضوءاً واهناً متراقصاً لا يثبت على شيء . . ويعقد الظلال ، ويشيع جواً من الرهبة والغموض ! !

وود « كليموف » لو يرفع صوته بطلب شربة ماء ... ولكن لسانه جمد ... فقد يبس ريقه رجف حلقه من حرقة الصدى ! . كما أن قوته وهت عن أن تجيب « الفنلندى » إلى ما يسأله إياه ، وتستمع إلى ما يهذى به .

فحاول أن يمدد جسده على المقعد حتى تداعب عينه سنة من النوم ... ولكن النوم أبى عليه أن يأخذ بمماقد أجفانه . وظلت تلك الكآبة القاتمة والخواطر السوداء والصور الغريبة تعبث به وتعيث من حوله ... فى حين أن ذلك « الفنلندى » نام ملأ جفونه ما حلاله النوم ، وعلا شخيره ؟ ثم أفاق من نومه وأشعل غليونه وطفق يحدث ويردد « ها ! ! . » ثم لم يلبث أن غط فى النوم من جديد ! وتحامل « كليموف » على نفسه فى « سبيروف » ونهض يسعى فى طلب الماء ! . فامتد طرفه إلى فريق من الناس يجلسون إلى مائدة حافلة بالطعام ، ويأكلون فى شراهة وعجلة ... فتمتم وهو يحاول أن ينأى بأنفه عن رائحة الشواء ويشيح بوجهه عن مرأى أولئك القوم وهم يلوكون الطعام فى أفواههم المكتظة : « كيف يأكلون ؟ ! »

ثم لمح بعد ذلك امرأة وضيئة تتحدث إلى رجل عسكرى يضع على هامته قلنسوة حمراء .. وتبتسم له ، فيفتر ثغرها عن أسنان كالدر المنظوم ... ولكن أثارت تلك الابتسامات وتلك الأسنان اللؤلؤية وتلك السيدة الوضيئة ذاتها عاصفة من السخط والحنق فى نفسه ! .

وإذا ما أدرك بغيته من الماء ! . تفل راجعاً إلى مجلسه .. فألفى « الفنلندى » قد استوى على كرسيه يدخن ، فلما أبصره « الفنلندى » قال له فى شيء من العجب : « ها ! ! أى محطة هذه ؟ ! » فأجابه كليموف فى صبر نافد وقد استلقى على مقعده وضم شفتيه حتى لا يتسلل إلى حلقه دخان الغليون الحاد اللاذع : « لست أدرى ! . »

— « متى نصل إلى مدينة « تفر » ؟ ! ... »

— « لست أدرى ! وممذرة إن كنت لا أستطيع الكلام إلى مريض ضيق الصدر ! ! ... »

فطرق « الفنلندى » حافة النافذة بغليونه ! . وطفق يحدثه عن أخيه البحار فلم يعره « كليموف » أدنى التفات ولم يكترث له بل راح يفكر فى فراشه الوثير اللين ... وإبريقه البلورى ذى الماء العذب القراح ... ويتصور فى خياله أخته « كاتى » التى تعرف كيف تروض نفسه وتخلع بزته وتحنو عليه وترنو إليه ! . ثم ترسمت على شفتيه بسمة شاحبة ، حينما تذكر خادمه الجندى « بافل » وهو ينزع حذاءه الضخم فى رفق ... ويضع الماء على المنضدة فى هدوء ! ... وخيل إليه إنه ما يكاد يستلقى على سريره ويجرع بعض الماء يطفى به غلته ... حتى يزول عنه ألمه ، ويبرأ من سقمه ! ويغط فى نوم هادىء ! ...

عادت تلك الأصوات تختلط فى سمع كليموف فى هرج ومرج وراح يطرق أذنه فى عنف هدير الأجراس وصفير القطار ... وضوضاء العجلات ، وهى تنساب صاخبة على القضبان ! .

فدفن كليموف وجهه — وقد تملكه اليأس ولج عليه الألم — فى وسادة المقعد ... ثم أمسك برأسه بين يديه ... وثانية راحت تطوف بفكره خواطر عن أخته « كاتى » وخادمه « بافل » ... ولكن أخته وخادمه اختلطا — هذه المرة — فى الصور التى تهيأ له والأشباح التى تتمثل لوهمه ... ولفحت وجهه حرارة زفراته التى تردها عليه الوسادة ... وقد دفنه فيها ! .

وتسرب الوهن إلى عظامه فشقت عليه الحركة .. وتسلل من النافذة تيار هوائى بارد ، فأصاب ظهره ... بيد أنه لم يحرك ساكناً وأبى أن يغير الوضع الذى استقر عليه جسده ... ثم لم يلبث أن غاب فى سبات قلق مضطرب ، سعى إليه فغل أطرافه وأغمض أجفانه ! ! ...

فلما ثاب إلى رشده — بعد أن تقضى زمن طويل — رأى النهار بازغاً ، والشمس تبعث فى أوصال الكون ضياءها ! ...

وكان السفر يهمون بارتداء معاطفهم ، ويتهيأون لمغادرة القطار ... حتى إذا وقف فى الموضع الذى أعد له .. أسرع الحالون فى مآزرهم البيضاء ، وأرقامهم النحاسية الصفراء ... إلى الركب يحملون عنهم متاعهم وحقائبهم ...

فألقى « كليموف » معطفه على منكبيه فى حركة آلية ...

وغادر القطار !. وأحس — وهو يسير — أنه ليس هو . بل مخلوق آخر ! . غريب ... وأحس أن حرارة القطار ما زالت ناشبة فيه ... وأنه ما برح مصحوباً بذلك الصدى فى حلقه ... والأشباح من حوله ... والكآبة فى نفسه ... وهى التى جميعاً حرمت جسده لذة الرقاد وحبست عن عينه نعمة النوم ...

واستقل عربة — كانت واقفة خارج المحطة — بعد أن وضع أمتعته إلى جواره فى تلك الحركات الآلية ... وتقاضاه السائق « روبلا وخمس وعشرين كوبك » حتى يبلغ به دارة فى شارع « بوفارسكا » ... فأذعن لما أراده عليه ، ولم يساومه وهو يعلم حقاً أن ثمت زيادة فى الأجر ... بيد أن النقود لم تكن ذا قيمة لديه فى ذلك الحين ! ...

فلما بلغ بيته .. تلقته خالته بالترحاب ! . وقابلته أخته وهى غادة هيفاء شارفت ربيعها الأول من العمر .. فحيته بإيماءة رقيقة وهى ممسكة بقلم تخط به فى كراسة معها .. فتذكر أنهـا تتهيأ لامتحان تنال به إجازة التدريس ..

ولكنه لم يرد تحيتها ولا أجاب على أسئلتها ! .. بل راح يلهث من الأتون الذى يضطرم فى صدره . وانطلق على غير هدى ولا بصيرة .. يجتاز الحجرات إلى حجرته . فارتمى على فراشه يئن ويتأوه

وتراءت لخياله من جديد تلك الأشباح والصور التى لزمته فى القطار ! . الفنلندى وغليونه .. الجندى ذى القلنسوة الحمراء ! . والسيدة ذات الثنايا اللؤلؤية .. ورائحة الشواء . وضياء الصباح الواهنة .. المتراقصة .!! فأفقدته صوابه وسلبته رشده وجعلته لا يبصر ما حوله ولا يسمع تلك الأصوات القلقة على مقربة منه.!

فلما أفاق من غشيته .. ألفى نفسه مضطجعاً فى فراشه .. عارى الجسد أو شبه عار ! . ولمح خادمه «باڤل» ، وذلك الأبريق البلورى ذا الماء العذب .. بيد أن هذا لم يخفف من حدة مرضه ، ولم يجلب عليه راحة أو سكينة ..

فارحت أطرافه واهنة متيبسة يشق عليه تحريكها. ولسانه قد تشقق من جفاف .. حتى عكدته وعلاه الطلا(١) .. وراحت ترن فى مسمعه قهقهة ذلك الفنلندى وقولته : « ها !! . »

وقام إلى جوار فراشه رجل بدين عظيم الهامة ذو لحية سوداء إنه الطبيب !. ينظر إليه فى إمعان وتأمل ، ولم يلبث أن نبس فى صوت ذى قهقهة وتشدق : « حسن !. حسن .. يا صنيرى رائع .. رائع .. لقد رأت تماماً !.. »

فأثارت طريقة الطبيب فى النطق ، وضغطه مخارج الحروف حنق كليموف .. وأغضبته دعوته له بـ « يا صنيرى » ، وأسخطه ذلك التلطف البغيض الذى يبديه نحوه . فلما تمم قائلا: « ما الذى يدعوك إلى منادانى بـ « يا صنيرى » ؟. وما علة تلك الإلفة التى تحدثنى بها ؟. عليك اللعنة !. » راعه من صوته جرس أجش صمق !. كاد أن ينكره !!.

كان الوقت يكر فى سرعة يتزعج لها القلب ، ككر القطار !. فقد كان ضوء النهار يغمر الغرفة ويسطع فى أرجائها .. ثم هاهى ذى عتمة المساء تخيم وتشيع فى أنحائها !. ولكن الطبيب لم يبرح الغرفة ، بل ظل فيه يتشدق بتلك الألفاظ البغيضة الثقيلة فى كل حين !.

وعاد يتراقص أمام ناظره فى فضاء الحجرة المريض صف غير ذى نهاية من الوجوه والسحن .. « باڤل » .. الفنلندى .. القائد « ناروشنتش » .. والضابط « مكسيمنكو » .!. وذو القلنسوة الحمراء ... السيدة ذات الثنايا اللؤلؤية ... الطبيب المتفيهق ! كلهم يتحدثون ويلوحون بأياديهم ! ويأكلون فى نهم

ولم يلبث « كليموف » أن أبصر — فى بياض النهار الآفل — كاهن الكنيسة الأب « ألكسندر » فى مسوحه الدينية ... يقبض بين أنامله على الصليب !.. ويتمتم بصلوات وأدعية !.. وقد تجلت عليه دلائل لم يرها « كليموف » من قبل .. فشردت عن وجهه تلك الإبتسامات والضحكات التى طالما طالته مترسمة عليه .. وتبدت عليه سيماء الرزانة والرصانة !.. وأخذ يرسم على كليموف علامة الصليب !..

وفى الليل .. كانت تتسلل حوله أشباح وظلال تغدو وتروح فى إبهام وغموض ... وكانت أخته راكعة إلى جواره !.. تردد صلاة خفية فى صمت وخشوع .! وترفع طرفها — فى هيبة ورغبة — إلى السماء حيناً تطلب الرحمة من الله ... وإلى صورة « القديسين » أحياناً تسائلهم العطف والشفاعة ..

ما أن تنسم « كليموف » البخور والأرج — وهو يتضوع فى جو الغرفة — حتى صاح — وقد استفزه ما استقر فى بطنه « إحملوا هذا البخور اللعين بعيداً ! . »

بيد أنه لم يكن ثمت من يجيبه .. وكان يترامى إلى سمعه من بعيد صوت الكهنة ، وهم يرتلون أناشيد « الوداع » .. وصدى خطوات تهرول على درجات السلم بين صعود وهبوط ! .

(١) عكدة اللسان أصله ، والطلا ياض يعلوه من مرض أو عطش . « جيل »

حينما خفت وطأة الحمى عن كليموف . وأنثنى عنه هذيانه ! . كانت غرفته عاطلة من البشر .. وراحت أشعة الشمس تفيض من خلال النوافذ ، وتسيل من بين السدول والأستار ! . وراح يتراقص على مياه الإبريق البلورى شعاع مرتعش من النور دقيق براق كالسيف المسلول ... وطرق سمع « كليموف » صليل العجلات وصرير العربات وهي تدرج في الطريق ، فأدرك أنه خلو من الثلوج ..

فراح يمد طرفه إلى ذلك الشعاع .. ثم يقلبه بين أثاث الغرفة ومتاعها .. ونوافذها وبابها . ولم يلبث أن راودت نفسه رغبة ملحة في الضحك .!!. فأخذ صدره يهتز وخصره يرتج من الضحك العذب البهيج الذى راح يحتاج جسده من هامة رأسه حتى أخمص قدمه .. وهو لا يدرى لذلك سبباً سوى الشعور البالغ من السعادة والارتياح ، والاحساس السابغ من البهجة والمراح ..

وتملك كليموف شوق فائق إلى الناس والحركة والحديث ، غير أنه لم يقو على تحريك أى عضو من جسده لما يعتريه من وهن وضعف ! كان منشرح الصدر طلق المحيا لتنفسه الهادىء طيب النفس طرب الفؤاد لضحكه وبشره ! . ووجود ذلك الإبريق البلورى ذى الماء العذب الفرات .. وشعاع الشمس المرتعش ، وأستار النافذة المزركشة المزينة بشتى الألوان ..

ولاح له فيما بين جدران غرفته كون فاتن رائع .. أبدع الخالق صنعه ! وحينما ولف الطبيب إلى غرفته ملك الصبيحة تمثل في ذهنه ماهو عليه من علم وبراعة في التشخيص ، ودماثة ورقة في المعاملة وحسن وظرف في المباشرة .. ما أجمل الناس جميعاً ! . ما ألطفهم !!

قال الطبيب « رائع ! . رائع .. لقد تماثلت يا « صغيرى » للشفاء .. وكدت أن تبرأ وتعاودك عافيتك ! .. »

فأصغى الضابط الشاب إلى فيهقته في النطق .. وهو يضحك جزلا .. ثم هاجته ذكرى ذلك « الفنلندى » .. والسيدة ذات الثنايا اللؤلؤية .. والقطار .. فانقلب ضحكه إلى قهقهة ..

ثم لم يلبث أن طلب بعض الطعام والسجائر .. وقال في إلحاف « أيها الطبيب ! . دعهم يحضرون لى خبزاً وسردينا وملحاً .. » فأبى الطبيب عليه ذلك ! . وصدع «باڤل» بأمره .. ولم يسع في طلب الخبز لسيده .. فطفق « كليموف » يصرخ ويصيح كالطفل حينما لا يجاب إلى بغيته .. فقال له الطبيب وهو يضحك مداعباً : « إسكت .. أيها الوليد الصغير .. » فلم يسع كليموف سوى أن يشاركه ضحكه ! ولما غادره الطبيب أغرق في وسن هادىء عميق ... أفاق منه بعد حين ومازال هذا الإحساس

المفعم بالمرح ، الفياض بالسعادة . يتملكه ويتسلط على نفسه .. وقد جلست خالته بجانب فراشه ... فابتدرها قائلا في بهجة وبشر :

« آه .. يا خالتى !. ما الذى كنت أعانيه ؟!.. »

— « تيفوس ! ... »

— « أحسبه كذلك ! بيد أنى الآن في تمام الصحة أين كاتى ؟ »

— « ليست بالدار ! ... لعلها ذهبت لزيارة إحدى لداتها بعد فراغها من الامتحان ! . »

ومالت المرأة العجوزة — وهى تقول ذلك — نحو جوربها كأنها تبغى إصلاحه بيد أن شفتيها أخذتا ترتعدان ! . فأشاحت بوجهها بعيداً ... وبغتة راحت تجهش بالبكاء وتنشج بالنحيب . لقد نسيت في غمرة حزنها وحسرتها ما أمرها به الطبيب فنفثت تصيح : « آه ... كاتى ! كاتى ! ... لقد ذهب عنا ملاكنا ... لقد رحلت ! . » وأطرقت رأسها إلى الأرض ، وهى تتأوه من البث والأسى ... فحملق كليموف في شعرها الرمادى ... لا يحير فهما لما تقول ، فسألها وقد تولاه الانزعاج ... الكاتى ... « ولكن أين ذهبت يا خالتى ؟ ! ! . »

فأجابته العجوز بين دموعها التى راحت تنهمر على وجنتيها ، وتكاد أن تخنق صوتها : « لقد أصيبت منك بالتيفوس ! ... وماتت ! وواريناها الترب في اليوم السابق على البارحة ! »

على الرغم من فجاءة وهول ذلك النبأ المفزع المروع ... فما استطاع « كليموف » أن يقمع تلك الغريزة الحيوانية ، التى جنحت بالضابط الناقه إلى الضحك والمرح ! فراح يصيح ويقهقه ويشتكى الجوع ... حتى إذا انقضت سبعة أيام ... اعتمد كليموف على ساعد « باڤل » وخطى وئيداً حتى دنى من النافذة ... حيث قام ثمت يسرح الطرف في مسارى الربيع الطلق الضاحك وهو ينفث في الأرض الحياة والخضرة ! وقد علت شمس الضحى في السماء تكاللها الغيوم والسحب . وطرق سمعه صليل العربات فخيل إليه أنه فظيع حاد !

حينئذ صدع قلبه الأسى وأمضه الكمد ... وأحس بوقع الفجيعة عليه أليما عنيفاً ... فطفق ينتحب في وله ومرارة ويغمغم شارد اللب كاسف البال ... وقد دفن رأسه بين راحتيه ...

« كم أنا شقى ! ... ياربى ... كم أنا شقى ! ... »

وودع بهجته ومرحه ... وانثنى يضطرب فيما كان يكتنفه من سآمته للحياة وضجره بالعيش . وقد ضاعفتهما فداحة تلك الخسارة التى لا تعوض ! ...

(طنطا) مصطفى جميل مرسى

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

دليل تليفونات القاهر طبعة يناير ١٩٤٨

يمكنكم أن تحجزوا الأماكن التى تختارونها للاعلان عن أعمالكم فى دليل تليفونات القاهرة الذى سيصدر فى شهر يناير سنة ١٩٤٨

والإعلان فى الدليل المذكور له مزايا خاصة إذ يتجدد كل يوم طوال مدة سريان الطبعة ويتداوله آلاف المشتركين وبه أماكن خالية تستطيعون استئجارها بأسعار زهيدة .

ولزيادة الايضاح اتصلوا : —

بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامة — بمحطة مصر

مطبعة الرسالة